الإفخارستيا تأوين للعشاء الأخير

الأب أيوب شهوان

مقدّمة

منذ أن أوصى يسوع رسله القدّيسين قائلاً: "إصنعوا هذا لذكري" (لو ٢٢:١٩؛ ١ كو ١١: ٢٦)، راج هؤلاء يكسرون الخبز يوم الأحد، تذكارًا لما صنعه الربّ في العشاء الأخير، فأضحت الذبيحة الإلهيّة، مع ما صارت عليه من احتفال ليتورجيّ منظّم وله قواعد وطرقه، تأوينًا متواصلاً لوصيّة الربّ، وبالتالي محور حياة المؤمنين الذين وجودهم بالذات هو قائم على عمل التأوين هذا الذي من خلاله ينالون الحياة من لدن ربّ الحياة.

سنستعرض في ما يلي، ولو بالإيجاز، التأوين في العهد القديم، ثم في العهد الجديد.

١ – عشاء الفصح اليهوديّ تأوين لخروج بني إسرائيل

تحتفل العائلة اليهوديّة في بيتها بعشاء الفصح، وهو وليمة احتفاليّة، مرّة كلّ سنة، في عيد الفصح، تذكارًا لإخراج الله لبني إسرائيل من مصر على يد موسى الكليم. يتذكّر اليهود هذا الحدث العظيم في العشاء الفصحيّ، تخليدًا لتدخّل الله لصالحهم، وللعجائب التي صنع، فيأكلون في هذا العشاء الخبز الفطير والحشائش المرّة، مُرفقين ذلك بالبركات والصلوات والمزامير، فإذا نحن أمام رتبة دينيّة بكلّ ما للكلمة من معنى، مُدْرَجَة في كتاب **المِشْنة** الذي ينطوي على عادات اليهود وأعيادهم وشرائعهم، والذي نقرأ فيه رسوم هذه الرتبة في الفصل العاشر في المقالة المخصّصة لعيد الفصح. في هذا العشاء، يشرب المحتفلون كؤوسًا أربعة من الخمر، بالتوافق مع أقسام العشاء الأربعة.

لسنا هنا في معرض الكلام بالتفصيل عن هذا الموضوع الغنيّ بمدلولاته، لذا سنُدرج فقط ما يفيدنا في معالجة ما نحن بصدده، أي التأوين، متذكّرين أن العشاء الفصحيّ اليهوديّ كلّه تأوين لأعمال الله الخلاصيّة.

ففي **القسم الأوّل** من العشاء، عندما تضيء ربة البيت شموع العيد، تبارك اللهَ الذي "قدّس بني إسرائيل بوصاياه"، ثم تصبّ الكأسَ الأولى، بينما يبارك الربّ "خالق ثمرة الكرمة"، والذي اختار بني إسرائيل ورفعهم وقدّسهم بوصاياه، وأعطاهم السبت للراحة، والأعياد للسرور، ويوم عيد الفطير تذكارًا للخروج من مصر... وعند تقديم خبز الفطير، يقول ربّ البيت متذكرًا: "هذا هو خبز المساكين، الذي أكله آباؤنا في أرض مصر".

في **القسم الثاني**، وهو ذو أهمّيّة كبيرة من حيث أن للكلمة فيه المكانَ الأوّل، يجيب ربّ البيت على سؤال الابن الأصغر حول فرادة تلك الليلة، وهذا ما أُطلق عليه اسم "رواية الفصح"، استنادًا إلى ما جاء في سفر الخروج حيث نقرأ: "وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلاً: هذا لسبب ما صنع الربُّ إليَّ حين خرجت من مصر" (خر ١٣: ٨). لذلك يخبر ربُّ البيت أفرادَ العائلة عن الخروج من مصر، ذاكرًا حالة العبوديّة التي كان بنو إسرائيل يرزحون تحتها، منتقلاً إلى عمليّة التخليص العجيبة التي حققها الله إلهه له على يد موسى عبده، وبالآيات/الضربات العشر التي أنزلها بفرعون مصر وبشعبه. ويذكّر الراوي بإنعامات الربّ، ساردًا بالتفصيل وقائع حدث الإخراج من العبوديّة، وشارحًا معاني حمل الفصح، وخبز الفطير، والحشائش المرّة. والنقطة الهامّة في الأمر هو ما يبلغ إليه من استنتاج حيث يقول: "يجب على كلّ إنسان، في كلّ جيل، أن يرى ذاته وكأنه قد خرج هو بالذات من مصر"، فيشكر الله على إحسانه العظيم، مأوِّنًا بذلك حدثًا مرتبطًا بمكان وزمان محدَّدين.

ممّا لا شك فيه أنّ أمانة بني إسرائيل لأوامر إلههم ولوصاياه قد أمّنت له تواصلاً تاريخيًّا وروحيًّا وحتّى قوميًّا مع الماضي، ودفعًا ديناميكيًا مُحييًا للحاضر، فإذا بكلّ جيل يعيش الحدث كما ولو كان أمام ناظريه، فتتحرّك مشاعره، وتنهر دموعه عند ذكر قهر العبوديّة، ويختلج قلبه ويهتف بالتهليل عند تذكّر التحرير منها، وتنبعث في ذهنه أفكار الكرامة والحريّة، وفي تقواه شعلة الإيمان بالله والاعتراف والثقة به. هكذا يصبح التذكّر تأوينًا فاعلاً، فإذا بالله، كما وعد، يقيم في وسط شعبه. وإذا بالشعب يعبده بخشوع وصدق، مقدِّمًا مع الذبائح الحيوانيّة قلبًا جديدًا وروحًا طاهرًا وسلوكًا لائقًا. هكذا يفعل التذكّر والتأوين فعلهما المطلوب وبالتالي المحيي.

٢ – إصنعوا هذا لذكري

بعد هذه اللمحة الوجيزة التي تبيّنَّا من خلالها كيف أوّن بنو إسرائيل عبر الأجيال العشاء الفصحيّ، وكيف كان يستمدّون منه دفق حياة لعيشهم مع الله وله، نعالج في ما يلي مسألة تأوين الإفخارستيّا لعشاء يسوع الأخير قُبيل آلامه الخلاصيّة، متذكّرين أن هناك رابطًا عميقًا من عدة نواحي بين عيد الفصح اليهوديّ وبين ذبيحة المسيح يسوع الفادي.

في العشاء الأخير الذي اشتهى يسوع شهوةً أن يأكله مع تلاميذه الاثني عشر، في الليلة التي أسلمه فيها يهوذا الإسخريوطيُّ إلى رؤساء الكهنة، أسّس المخلّص ذبيحةَ جسده ودمه، كي تتواصل ذبيحة الصليب جيلاً بعد جيل وحتّى مجيئه، ولكي يَكِلَ إلى الذين سيؤمنون به ويشكّلون الكنيسةَ وصيّته التي أودعها أوّلاً رسلَه الاطهار قائلاً: "إصنعوا هذا لذكري". إنّ تذكار موت الربّ ثم قيامته هو ارتباط بهذين الحدثين الماضيّين، وتأوين لهما في كلّ زمان ومكان حتّى مجيء الربّ، واتحاد به منذ الآن في حياة تدوم

أبدًا في الملكوت السماويّ. في الواقع، تأوِّن الذبيحةُ الإلهيّة عشاءَ يسوع الأخير وذبيحةَ الصليب، التي تكمّل ذبيحة العهد القديم وبالتأكيد تضاهيها، ممّا يعني أنّ المؤمنين الذين يشركون في تناول جسد الربّ ودمه يعيشون من جديد بالقلب والفكر والروح حَدَثي آلام الربّ وقيامته، وقبلهما لقاءه الآخير وتلاميذه لتناول العشاء الفصحيّ.

لا تقتصر وصية الربّ على تكرار أقواله وأفعاله "حتّى مجيئه"، أو على تذكّر ما عمل وعلّم وحسب، بل على تأوين كلّ ذلك من خلال الاحتفال الليتورجيّ الذي من خلاله يمّن الربّ على المؤمن بالنعمة والقوّة، وبالقدرة على السمو لملاقاة الربّ الذي ينـــزل أبدًا إلينا ليحلّ في ما بيننا كما في كلّ تاريخ الخلاص. لقد ظلّت الكنيسة جيلاً تلو الآخر أمنيةً لوصيّة الربّ، وفيّة له، تمامًا كالمؤمنين الأوائل الذين "كانوا يواظبون على تعلّم الرسل، والشركة الأخويّة، وكسر الخبز، والصلوات...، ملازمين الهيكل كلّ يوم بقلب واحد، يكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب" (أع ٢: ٤٢، ٤٦).

ولقد أصبح يوم الأحد، اليوم الأوّل من الاسبوع، "الموعدَ" الثابت لتذكّر موت الربّ وقيامته من خلال الاحتفال بسرّ الافخارستيّا، يومَ الوفاء والتأوين بامتياز. هكذا راح المؤمنون يجتمعون في اليوم الذي قام فيه الربّ من الموت "ليكسروا الخبز" (أع ٢٠: ٧)، ممّا أتاح لهم أن يعيشوا الحدث الماضي في حاضر يتواصل بفضل حضور الربّ بجسده ودمه الأقدسَين وحتّى منهى الدهور. وهكذا يواصل شعب الله مسيرته، وكأنّه في طريق حجّ إلى بيت الآب، متغذيًا بالإفخارستيّا المقدّسة، ومبشّرًا بسرّ يسوع الفصحيّ، "حتّى مجيئه" (١ كو ١١: ٢٦)، ومعدًّا نفسه للاشتراك في الوليمة السماويّة مع مختاري الآب في ملكوت السماء.

لا بدّ من التشديد على أنّ التأوين يبدأ بالكلمة المقدّسة، كلمة الحياة، التي يختزنها الكتاب المقدّس ويحفظها لنتغذى بها، فتكون لنا الحياة ولمن بعدنا وحتّى نهاية العالم. فعند قراءتنا نصوصًا من العهد القديم، نرتقي بقلوبنا وبأفكارنا إلى إدراك مراحم الله ومحبّته التي جسّدها بأعمال خلاصيّة متواصلة؛ وعندما نقرأ من العهد الجديد، يتحرك في كياننا ما تحرّك في كيان الرسل والتلاميذ والمؤمنين الأوائل الذين حظوا بسماع الربّ ورؤيته ولمسه، وترتسم في أعين إيماننا، عظائم الربّ التي تجلّت في القول والفعل بيسوع. وما القول عن رواية الحدث التأسيسيّ للأفخارستيّا، التي فيها تتّحد قوةُ كلمات يسوع وعملِه، وقدرةُ الروح القدس، لتجعلاَ من الخبز والخمر جسدَ المسيح ودمَه، حقيقةً سريةً عظيمةً ماثلة أمام أعيننا.

ويتم التأوين، بعد ليتورجيّا الكلمة، في ليتورجيّا الذبيحة حصرًا؛ فكلام التقديس، واستدعاء الروح القدس، وتذكّر المؤمنين لآلام يسوع وموته وقيامته وعودته بالمجد، ثم تَناوُل جسد الربّ ودمه، يجعل هؤلاء يقرّبون إلى الآب ما مَنَّ به عليهم هو أوّلاً، أي الخبز والخمر المحوّلَين إلى جسد المسيح ودمه، وبهذا

يضحي الربّ حاضرًا حضورًا سريًا وحقيقيًا، وبهذا يأوّن المحتفلون بالذبيحة المقدّسة، بالمسيح ومع المسيح، ما صنعه الربّ لأجلهم.

هكذا الإفخارستيّا هي تذكار فصح المسيح يسوع، بها تصبح ذبيحته الوحيدة فعلاً حاضرًا، وتقدّمة سريّة، وإشادةً بما صنعه الله للبشر، ليس مجرّد استعادة لأحداث الماضي؛ "فكلّ مرّة تُقام ذبيحة الصلب التي ذبح بها المسيح فصحنا" (١ كو ٥: ٧) يتم عمل افتدائنا. ولكون الإفخارستيّا هي تذكار المسيح، فهي أيضًا ذبيحة تمثّل ذبيحة المسيح التاريخيّة وتجسّدها فعلاً باستمرار حتّى نهاية الدهور.

ولا بدّ من ان نبرز أيضًا التأوين الذي نحن بصدده في الجماعة المؤمنة والملتئمة، والتي من خلالها، وبرئاسة خادم المذبح، يتمّ تأوين العشاء الأخير في سرّ الافخارستيّا. لم يَكل المسيح إلى فرد أحد صنْعَ ذكراه حتى مجيئه، بل إلى جماعة الرسل، لذلك يكتسي التأوين بُعدًا جماعيًا رائعًا، كون الجماعة لا تقوم إلاّ بفضل ارتباط أفرادها بالمسيح، كالأغصان بالكرمة، من خلال جسده ودمه الأقدسين، فتضحي الجماعة التعبير الأبهى لعمليّة التأوين الحياتيّ.

ويهمّنا أن نشير إلى أنّ لا تأوين حقيقيًا إذ لم يكن فعل عبادة للآب الذي أعطانا ابنَه، والابن الذي وهبنا جسده ودمه الأقدسَين، والروح الذي بحلوله يكمّل، ثم عملَ بشارةٍ نحو الآخرين، الأقربين والأبعدين، على مثال الربّ الذي بشّر الأقرباء والبعداء، واهبًا ذاته للجميع وبدون استثناء.

خاتمة

إذا كان المسيح قد شاء أن يبقى بيننا، هو الذي نعيمه مع بني البشر، فإننا نبادله مراحمه ومحبّته هذه بفعل تأوين لا ينتهي، إلى يوم نلتقي به في آنٍ دائمٍ وأبديٍّ في السماء. إنّ أجمل ما في التأوين هو أنّ الإفخارستيّا توحّدنا بالله وبابنه وبروحه القدوس، وبعضنا ببعض، لأنّها في الحقيقة رباط المحبّة وعلامة الوحدة، وعربون المجد الآتي، حيث نشرب مع الربّ يسوع عصيرَ الكرمة جديدًا في ملكوت أبيه (مت ٢٦: ٢٩). إن المؤمنين المحتفلين بسرّ الإفخارستيّا، طالما هم في توق إلى مجيء الربّ بالمجد، يهتفون له باستمرار "ماراناتا" (١ كو ١٦: ٢٢)، "تعال أيها الربّ يسوع" (رؤ ٢٢: ٢٠)، يأوّنون بذات الفعل العشاء الأخير الذي يغتذون منه كي يقوَوا على مواصلة سفرهم إلى حيث كنـــزهم، إلى بيت الله الآب، حيث يلتئمون وجمع المختارين حول عرش الحمل الممجّد في تسبحة دائمة إلى دهر الدهور.